

«المعنى كاستعمال» في العلاج النفسي:

كيف نفهم «أنت تملك عقلي في درج مكتبك»!

جون هيتون وباربرا لاثام

'Meaning as Use' in Psychotherapy: How to Understand 'You have my Mind in the Drawer of your Desk

John M. Heaton / Barbara Latham, London, United Kingdom

ترجمة: مروان محمود

مراجعة: إبراهيم الكلثم – أروى الفهد

ملخص الورقة

إنَّ معظم أعمال الفيلسوف فيتغنشتاين تُناقش نظرية وجود علاقة داخلية بين اللغة والعالم أو الواقع، كما يرى بأنه لا وجود لذاتٍ مفكِّرةٍ مستقلة عن اللُّغة التي تُعد -بطبيعتها- تمثيلاً للوقائع وواصفةً لها، إلا أن هناك جانباً معتبراً من الطب النفسي والتحليل النفسي والعلاج المعرفي (cognitive therapy) يفترض وجودها، وبالتالي إمكانية علاجه، إذا تطلَّب ذلك. وبناءً عليه، فإننا سنناقش في هذه الورقة حالةً لمريضةٍ اعتقدتُ بأن عقلها موجود في درج مكتب ما، لتكون هذه الحالة توضيحاً لطريقةٍ مختلفةٍ للعلاج النفسيّ مستوحاة من نظرية فيتغنشتاين.

محتوى الورقة:

١. مشكلة مقاربات العلاج النفسي الثلاث.

٢. المعنى كاستعمال.

٣. رواية لاثام.

١. مشكلة مقاربات العلاج النفسي الثلاث

يتفق معظم شرّاح فيتغنشتاين على أن ملاحظته الأولى، في أول أعماله الفلسفية الذي بعنوان «المذكّرات 14-1916»: «يجب أن يعتني المنطق بنفسه» قد كانت بمثابة تمهيدٍ لرؤيته الفلسفية في عمله اللاحق، كما أنه قد ألحق ملاحظته بعبارةٍ تؤكدُها، بقوله: «هذه تبصّر عميق ومهم للغاية». نلاحظ بأن هذه الرؤى قد دفعته بعيداً عن الاعتقاد الواقعيّ بأن هناك نظاماً من الحقائق المعطاة مسبقاً في العالم، وبأنّ ما علينا فعله هو اختيار العلامات اللغوية المقابلة لها، ذلك الافتراض الذي مفاده أن اللغة تعكس سمات أساسية محددة للعالم؛ يُقابله ذلك الإغراء المتمثل في الاعتقاد بأن المعنى شيءٌ مرتبطٌ بمحض الكلمة.

ولكننا عوضاً عن ذلك، نلتفت إلى استخدام الكلمات وفق سياق حياتنا؛ أي أنّ معنى الكلمة لا ينفك عن استخدامها في اللعبة اللغوية -حسب فيتغنشتاين-.

لا يوجد تفسير ممكن للعلاقة بين اللغة والواقع، وبدلاً من السعي إلى ذلك التفسير، يجب أن نوضح طريقة عمل اللغة من الداخل لئرى كيف يعتني المنطق بنفسه، ثم علينا أن ندرك كيفية ترميز الرمز؛ ولذلك لا يمكننا الخروج من اللغة وفحص العالم واللغة من نقطة خارجها.

إن الفلسفة وصفية بحتة، وإشكالاتها ليست كالأشكال العلمية؛ لأنها ليست تجريبية؛ فهي، أي الفلسفة، تُحل بالنظر في طريقة عمل اللغة، على نحو يجعلنا ندرك استعمالاتها وأبعادها، حتى بالرغم من تلك النزعة إلى سوء الفهم (تحقيقات فلسفية: ١٠٩).

لن أَدافع عن ذلك، كما فعل فيتغنشتاين والعديد من الشراح (على سبيل المثال: McGinn 2006)، بل سأوضح بإيجاز أن معظم الأطباء النفسيين والمحللين النفسيين والمعالجين المعرفيين (CBT) يتخذون -أيضاً- موقفاً واقعياً، بافتراضهم أن البنية المنطقية للغة مفروضة من الخارج من خلال البنية الكلية للواقع، وهذا التصوّر يؤثر في العلاج.

إذن، بدلاً من فهم اللغة على أنها مستقلة عن العالم، فإنهم يفترضون وجود صلة مباشرة بين أجزاء اللغة (الكلمات) وأجزاء العالم (الأشياء). على سبيل المثال، نتعلم معنى كلمة «أحمر» من خلال تطبيقها بشكل صحيح على تجربتنا البصرية للأحمر. وهكذا يبدو أن مفهوم «الأحمر» يشير إلى اتجاهين: شيء عام، وهو اللون الأحمر، وشيء خاص في الذهن نعرفه بواسطة الاستبطان، أي تجربة استشعار ومُعانة ذاتية للون الأحمر. إن هذا الاعتقاد بوجود عالم خارجي حقيقي وموضوعي، وعالم داخلي مكون من تجاربي النفسية التي يجب أن تتسق بشكل صحيح مع العالم الخارجي -في حال كنت سليم العقل-، له تأثير عميق على تصوّرهم للعلاج.

لجعل هذه المناقشة مناقشةً حيّةً ولملموسةً سننظر في حالة مريضةٍ معيّنة - كما أسلفنا-؛ قد أصرت على أن عقلها موجود في درج مكتب مُعالجتها النفسيّة. من خلال هذه الحالة سيتبيّن النهج النظري للطب النفسي، والتحليل النفسي، والعلاج السلوكي المعرفي لهذه الظاهرة بعد مناقشته، وبعدها نناقش الفهم الوصفي له.

لنبدأ مع الطب النفسي: بالنسبة إلى الطبيب النفسيّ، فمن الواضح أن هناك اختلالاً في تيقّن المريضة بأن عقلها في درج المكتب، فالحقيقة الموضوعية هي أنه لا يمكن أن توضع العقول في الأدراج. وعليه، فإنه يذهب، أي الطبيب، إلى أن هناك لوثة ما في عقل المريضة، أو بالأحرى في دماغها؛ إذ يُفترض بأن العقل نتاجٌ سببيّ للدماغ؛ ولذلك لن يقرر الطبيب النفسيّ التحدث

إلى المريض لفهم ما يعنيه، بل سيتجه مباشرة إلى ما يعتقد أنه سبب المشكلة، أي أنه سيعالج الحالة عن طريق الأدوية وفقاً لتشخيصه بأن هناك اختلالاً في كيمياء دماغ المريض.

وماذا عن التحليل النفسي؟ بالنسبة إلى المحلل النفسي، أيضاً، فإن هناك تعارضاً واضحاً بين معتقدات المريض والواقع، إذ اعتقد فرويد أن الواقع الخارجي، أو العالم الماديّ، قد وصفه العلمُ وصفاً صحيحاً، ولكن مبدأ اللذة - الذي يحكم اللاوعي، أي يحكم الداخل- يميل إلى استبدال مبدأ الواقع، إذ تُسيّرنا الأمنيات بسهولة، فتصبح معتقداتنا تلبيةً لمحض رغبات. ولعلاج المريض، هنا، يتعين علينا تحويل الأنا-اللذة إلى الأنا-الواقع. هذه عملية صعبة وبالتأكيد تقتضي التحدث مع المريض، لكنها موجّهةٌ بواسطة نظرية التحليل النفسي، كما أنها ليست وصفية، أي أنها لا تلتفت إلى استخدام الكلمات التي يتحدث بها المريض في سياق حياته.

نأتي إلى العلاج السلوكي المعرفي (أو الإدراكي)، الذي انبثق من العلاج السلوكي التقليدي، إذ يفترض أن هناك عمليات باطنية داخلية، تحدث في العقل، وتُدعى بـ«التفكير» أو «الإدراك»، وتلك العمليات تتوسط تغيير السلوك. بحيث يمكن مراقبة هذه العمليات وتغييرها، فقد تُغيّر إلى السلوك المرغوب به تغييراً إدراكياً. كما يفترض هذا العلاج أن المشاعر ناتجة عن المعتقدات، وتُمثّل في العقل في صورة كلماتٍ وصوّر. وهنا يمكن القول، إن غضبك على معالجك بعلة أن عقلك في درج مكتبه أمرٌ غير مرغوب به بل غير معقول؛ لذلك سيُصمّم طرقٌ فعّالة مختلفة؛ لتغيير المعتقدات التي تسببت بهذا السلوك. إذن، مرة أخرى، نرى أن علاقة المعالج بما يتحدث به المريض علاقةٌ خارجية؛ فهو يطبق نظريةً عن العقل مفترضاً أنّ كلمات المرضى ومعتقداتهم وسلوكهم مرتبطة ارتباطاً مغلوّطاً بالواقع الخارجي.

٢. المعنى كاستعمال

إن فكرة العلاقة الداخلية هي فكرة يوظّفها فيتغنشتاين طوال مسيرته الفلسفية، حيث جادل بأن اللغة تمثّل علاقةً داخلية لتصور العالم. فإنّ العلاقة الخارجية هي علاقةٌ بين عنصرين يمكن تصورهما بشكلٍ مستقل عن بعضهما، فتصبح المسألة هنا مسألة اكتشاف أو فرضية. وعلى سبيل المثال، إذا كان لدى أحدهم التهاب في الحلق بسبب «العقدية»؛ فهناك علاقة خارجية بين البكتيريا والتهاب الحلق الذي اكتُشف.

من ناحية أخرى، رأى فيتغنشتاين أن العلاقة بين اللغة والعالم، الذي تُصوِّره، ليست علاقة افتراضية بين العناصر التي يمكن فهمها بشكلٍ مستقل عن بعضها، إذ لا تعكس اللغة سمات العالم، ولكنها في علاقةٍ داخلية معه. فإن اللغة شكلٌ من أشكال الحياة، والعلاقة بين الجملة وما تعنيه لا تُكتشف عن طريق فرضية، بل عن طريق الاطلاع على القواعد التي تمكّننا من استخلاص المعنى من القاعدة أو العكس. لذلك، فإن العلامة المفترضة «ب»، تختلف عن حقيقة «ب»، ولكنها مرتبطتان ببعضهما ارتباطاً داخلياً بقدر ما نستخدم العلامة المفترضة «ب» لتمثيل حقيقة أن «ب» هي الحالة. فإن إدراك العلاقة بين اللغة والعالم، الذي تمثّله بوضوح فائق، لا يكون من خلال اكتشاف شيء عميق في «العقل»، بل من خلال توضيح قواعد اللغة التي نستخدم من خلالها العلامات القضائية لتعبّر بكيف تسير الأمور. ولتمييز أبعاد اللغة بوصفها استعمالاً؛ فالبنية/التركيب والوظيفة جزء رئيس فيما يتعلق بلُغتنا. وعليه، فإننا بحاجة إلى أن نُطيل التأمل بكيفية استعمال اللغة، فعلياً، في حياة المرء.

كيف نوظف هذا الاستبصار في فهم مريضتنا الغاضبة من كون معالجتها النفسية تحتفظ بعقلها في درج مكتبتها؟ إذا كانت هناك علاقة داخلية بين الكلمات وما تشير إليه؛ فإن استعمالها يدلّ على معناها، فاللغة والعالم ليسا مفهومين يعتمد أحدهما على الآخر إن كانا مترابطين داخلياً، كما أن اللغة والذات تلتقيان في اللغة، فمن غير المنطقي أن يكون لديك مفهوم عن ذاتٍ مُفكّرة مستقلة عن اللغة، بحيث تقوم هذه الذات بتمثيل حالةٍ ما. لذلك علينا رفض فكرة التصور الحاسم الجوهرية للمريض الذي يمكن أن نتحدث معه -وقد نصححه- على نحو مستقل عن طريقة تمثيله للحالات. وبالمثل، علينا أن نرفض فكرة موضوعٍ يُمكن الإشارة إليه بشكلٍ مستقل عن الذات التي تمثله. فعلى سبيل المثال، إن فتح الدرج وإثبات عدم وجود أي عقل فيه يعني العودة إلى وجود علاقة خارجية بعالم الذات (أو الشخص المريض). فإن عالمنا في تناول المعرفة الإدراكية لأي شخص يفهم الأوضاع التي تمثلها مقترحات لُغتنا؛ «وبما أن كلّ شيءٍ واضحٌ أمام أعيننا فلا يوجد شيءٌ يحتاج لتفسير» (تحقيقات فلسفية: ١٢٦).

ما نقوم به هو تشجيع المرء على التحدث بحرية والرد عليه «داخلياً»، أي أننا لا نطبق أي نظرية للعقل أو اضطراباته عليهم، والتي من شأنها أن تكون علاقة خارجية بهم، ويعني ذلك معاملتهم كما لو كانوا كيانات منعزلة عن استعمالها للغة، بالرغم من أن هذا القول أسهل بكثيرٍ من تطبيقه.

«البشر متورطون للغاية في الالتباسات النحوية الفلسفية، وتخليصهم من هذا يقتضي انتشالهم من مجموعة هائلة من الارتباطات التي قد وقعوا فيها. وبهذه الحالة، فإنه لا بدّ من إعادة استقراء لغتهم وجمعها بأكملها، لكن هذه اللغة معرضة للتطور بطبيعة الحال؛ لأنّ البشر كان لديهم -وما يزال- ذلك النزوع للتفكير بهذه الطريقة. لذلك، فإنّ الانتزاع للتطوير لا يعمل إلا مع من يعيشون في حالة غريزية من عدم الرضا عن اللغة، بخلاف أولئك الذين يتبعون كل غرائزهم، ويعيشون داخل الجماعة التي خلقت هذه اللغة كتعبير مناسب لها». (كتاب الخط الكبير - The Big Typescript، فيتغنشتاين)

في مجتمعنا، أعني مجتمع العلاج النفسي، نتوقع أن يكون لدينا نظرية للعقل واضطراباته، وأن نطبق ذلك على المريض. فإن هذا يعمل بشكلٍ جيد إلى حد ما في الطب العادي، إذ نصّف ما يزعجنا للطبيب ثم يعطينا العلاج ونطبعه في الغالب. فللطبيب هنا علاقة خارجية بما قاله المريض. يستخدم المريض لغة للإشارة إلى شيء ليس أكيداً من صوابه، ويأخذ الطبيب ما يشير إليه على أنه صحيح ويستخدم طريقته -وعادة ما تكون صرف دواء للمريض- لعلاج.

لكن لنفترض أن شخصاً ما يقول: إنه مكتئبٌ، أو حزين، أو خائف، أو مهووس، أو مدمن، أو يائس. فهل هذا يتّسق مع الصورة البسيطة التي تفترض وجود اضطرابٍ ما معهم، وأنّ هذا الأمر يحتاج ببساطة إلى تصحيح؟ لا يتسع المقام للتطرق إلى هذا، ولكن لاحظ أنّ البشر يقولون عادةً: «أنا مكتئبٌ» وما إلى ذلك، فبعبارةٍ أخرى، قد أطلقوا على أنفسهم وصف الاكتئاب ببساطة.. إلخ. الآن كما أشرتُ أعلاه، عندما يكون لدينا علاقة داخلية بالنسبة لعالمنا فلا توجد ذات، بوصفها كياناً، في علاقة مع العالم. فالعالم والحياة شيء واحد، «أنا عالمي الخاص». (تراكتوس ٥,٦٢١-٥,٦٣)

يمضي فيتغنشتاين إلى القول بأنه لا يوجد جزءٌ من تجربتنا يُمكن افتراضه مسبقاً أو يُمكن عدّه بديهياً. فكل ما نراه يمكن أن يكون بخلاف ما هو عليه، وكل ما يمكننا وصفه على الإطلاق يمكن أن يكون غير ذلك، حيث «لا يوجد نظامٌ مسبق للأمر» (تراكتوس ٥,٦٣٤).

لكن هذا بالتحديد ما لا يفهمه المريض عندما يقول: «أشعر بالاكتئاب» وما إلى ذلك، فهو لديه صورة لكيان «أنا» الذي يعدّ أمراً مسبقاً في دورٍ ثابت في نظامٍ معين للغة، وبهذا المنطلق فإنه قد خلق وحشاً ذهنياً يُسيطر عليه. تتمثل

مهمة العلاج هنا في التخفيف من حِدّة قبضة هذه الصورة وسُلطتها على المريض، وذلك عن طريق السماح له بالحكم بحرية ليقول ما يتبادر إلى ذهنه، حتى نجد ثغرةً تُبطل الصورة التي تعاضمت لديه. إذن، بدلاً من القبول السلبي لتفسيرٍ معينٍ للتجربة، فإنه يذهب لرؤية الاختلافات في التجربة.

٣. رواية لاثام

هذا ما قالته الطبيبة والمعالجة النفسية البريطانية باربرا لاثام Barbara Latham، عن تجربتها مع السيدة التي كانت تعتقد أن عقلها موجود في الدرج:

«جاءت امرأةً لرؤيتي. قائلَةٌ بإصرارٍ وجديةٍ «إنها ليست موجودة»، بل إنها تزعم بكونها ليست شخصًا سليمًا بالأصل وقد سئمت من التظاهر بذلك، وأنها لم تتمكن من متابعة أشخاص آخرين لمعرفة كيفية التصرف كإنسان. أحيانًا كانت تصرخ في وجهي قائلة: «لا تكلميني كما لو أنني شخصٌ». وبعد أسبوع، جاءت وقد أصرت على أنها الشخصُ الخاطئ للعلاج، وأنها اختفت وتلاشت بعض الشيء، ولن تتمكن أبدًا من فعل ما هو متوقع منها. كان مستوى الإحباط في الجلسات مرتفعًا للغاية، حتى أنها كانت تبدو هبيئةً خائفة طيلة الوقت؛ تقفز عند أي ضوضاء، وتظلّ تتحرك كما لو أن الضوضاء مستمرة رغم توقفها. أيضًا، كانت تتحدث كثيرًا عن شوقها لصندوقٍ مغلق حيث يمكنها أن تجد فترة راحة.

في يومٍ ما، انتهت لكوني أحاول أن أسمع الضجيج قبل أن يمسّها، حيث بدا الأمر وكأنني أحاول أن أتمكّن من الدخول في ذهنها متجردةً من ذاتي، مع ذلك فإني فضلتُ بالطبع «البقاء في جسدي» بدلاً من محاولة تلبية مطالبها الوهمية. لكنها عندما أدركت أنني قد تحولت، أطلقت العنان لغضبها، بل أرادت مع هذا الغضب أن تُحطم غرفتي وتحطمني إلى أشلاء. إذ كان عليه أن يكون عقلها أو عقلي، ولكن لما كنتُ أمتنع عن أن أكون في ذهنها، وهذا ميؤوس منه، فقد ازداد إصرارها، وبدأت في اتهامي بالحفاظ على عقلها وعدم السماح لها بأن تملكه. كانت متيقنةً تمامًا بأن عقلها موجود في درج مكتبي!

مررنا بالعديد من الأسابيع الصعبة، وكانت إما غاضبة أو هشة. اتهمتني يومًا قائلة: «لديك سيارة جديدة!» لقد رأيت زوجي يقود سيارته لما كانت في طريقها إليّ، والحقيقة أنني لم أكن أعلم حينها بأنها كانت تأتي لمنزلي يوميًا لتفقد السيارة، وذلك لتطمئن نفسها من أنني كنت أعني بعقلها الموجود في الدرج! حتى أنه لما اختفت السيارة لأسابيع، لظرفٍ ما، أصبحت المرأة في حالة سيئة مفترضةً أنني لم أكن في المنزل. قد مكّن هذا التواصل الهش بيننا بداية صغيرة لاجتماع العقول. إذ سلمت لها شيئين أرادتتهما، الأول هو مرافقتها خارج المنزل إلى الشارع، والسماح لها أن تأتي في

يوم الجمعة الذي كان عطلةً لي. ويبدو أن هذا أدى للخروج من مأزق السلطة حول ما إن كان عقلها المسيطر أو أنه عقلي. وأصبحت حينها المحادثة ممكنة.

بدأت أفهم حالتها تدريجيًا، فالحقيقة أن والدتها كانت خبيرة محترفة، تكتب مقالات حول كيفية تنشئة الأطفال، إذ كانت تعدّ جدولًا زمنيًا صارمًا لأنشطة وألعاب أطفالها، منظمًا لكل نصف ساعة، كما كتبت خطة تفصيلية عن هذه الأنشطة غير الواقعية، التي يستحيل تطبيقها. مما جعلت أطفالها في خوفٍ وقلقٍ مستمر من كونهم لم يتمكنوا من تطبيق ما تطلبه الأم. وعليه، فقد بدا لي من المعقول جدًّا أن تنظر هذه المرأة لنفسها كما لو أنها محض فكرة في عقل والدتها، وتستنج من ذلك أنها ليست شخصًا سليمًا!

المراجع:

McGinn, M. (2006) *Elucidating the Tractatus*. Clarendon Press, Oxford.

Wittgenstein, L. (1961) *Tractatus Logico-Philosophicus*. Routledge & Kegan Paul.

Wittgenstein, L. (1979) 2nd Ed. *Notebooks 1914-16*. University Chicago Press.

Wittgenstein, L. (2001) 3rd Ed. *Philosophical Investigations*. Blackwell.

Wittgenstein, L. (2005) *The Big Typescript TS 213*. Blackwell

John M. Heaton / Barbara Latham. Date: XML TEI markup by WAB (Rune J. Falch, Heinz W. Krüger, Alois Pichler, Deirdre C.P. Smith) 2011-13. Last change 18.12.2013.

This page is made available under the Creative Commons General Public License "Attribution, Non-Commercial, Share-Alike", version 3.0 (CCPL BY-NC-SA)